الفصل الثالث والعشرون

غريزة التملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطامع الملك والاقتناء ، يستغنى عن اللباس يستر به جسمه، يكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذى يجده بلا عناء ، ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يكمن فيه سواد الليل ، ويحفظ فيه نسله سواء أكان على فرع شجرة بعيدة المنال ، أم فى أرض جدباء لا تتطلع إليها أنظار الأعداء . فهذه المطامع القليلة لفتت نظره عن التملك فاستراح ، وعاشت أفراده فى وئام ولم يحصل بينهم من التنازع يحصل غالبا بين أفراد الإنسان.

والدنيا فى نظر البدوى ملك شائع ، ينتجع منها ما يطيب له فيها المرعى الذى يكفيه ومن يعوله قانعا من القوت بالكفاف ، فلذلك عاش هنيء البال قرير العين. ثم تسربت المطامع إلى قلب الإنسان لما زاد نسله وبرقت أمامه بوارق الحضارة ، **فأصبح لا يقتصر** من المسكن وغيره على ما يكفيه طول حياته ، بل أغار على جيرانه و**توسل بالطرق** المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاغتصاب ، ولو فكر لعلم أن الأرض تستهويه بجمالها ليملكها ، وتحثه غريزة التملك ليعمرها ، ثم تتبادلها الأيدى بالميراث والبيع جيلا بعد جيل ، حتى إنك لو أحصيت من ملكوا على التوالى قطعة صغيرة من الأرض لأعياك العد ، وتملكتك الدهشة من أن الأرض لا تزال كما كانت ، وأن ملاكها هم فى الحقيقة خدام سخرتهم هذه الغريزة لإصلاحها، وهذه من سنن الكون البديعة.

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحيانا ، ويرغب كل منهم فى أن يملكه وحده ، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم. فشت هذه الحال بين صغار السن وكبارها على السواء « **يشيب ابن آدم ويشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل** » . نعم إن الإنسان لا يكاد يرى شيئا طريفا حتى تجيش نفسه بحب ملكه ، مع أنه قد يكون فى حل من النظر إليه أو التمتع باستئجاره. فما سر هذا ؟. إن فى الملك معنى نفسيا تصبو إليه النفس ، هو حرية التصرف فيه بالتغيير الذى يتفق هو وذوق المالك ، والمستأجر مسلوب الحرية ، لا يتعدى الحدود التى يرسمها له المالك ليضمن سلامة العين المستأجرة ، ومع ذلك فهو مهدد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة.

يخرج الأطفال للتنزه ويسرهم تلبية مطالب هذه الغريزة بجمع ما تمتد إليه أيديهم من الصدف والأحجار ، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوا فى ناحية منه وقلما أعاروه التفاتا ، فليتهز الآباء هذه الفرصة السانحة ، وليفسحوا لهذه المقتنيات مكانا خاصا لينسق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطرف ، فإن ترداد النظر إليها يحثهم على البحث عن فوائدها ، أما الكتب فهى كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء فى الحصول عليها وتدوينها ، فحق لنا أن نفاخر باقتنائها ، ونزين بها حجراتنا ، ونزيد بقراءتها معلوماتنا. ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشرائها لغلاء ثمنها ، أما الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب ورخصت أسعارها ، فحق لنا أن ننشط المؤلفين بشراء مؤلفاتهم ، وأن نحث أبناءنا على شرائها مما يقتصدونه من المال ونعرّفهم سبل الاحتفاظ بها.

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تعطى للتلاميذ على سبيل الإعارة ثم ترد بعد ذلك ليقرأها غيرهم.

وللمقتنيات حظ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتمدينة ، وأمنية الرجل

منهم إذا هاجر أو ساح فى بلد أن يعود إلى منزله ويعرض فيه كل ما جمعه من المقتنيات ، ويدعو إليها زائريه ويحادثهم فى تاريخ العثور عليها. فهل لنا من مربين يحركون فينا هذا الميل ؟.

لا يكاد يخلو إنسان من شيء يقتنيه ويبالغ فى الحصول عليه. رأينا من يقتنى اللوحات الفنية التى ابتدعتها أنامل مهرة المصورين أمثال رينولد ، فقد رسم وجه ابنة أمير وهى فى طور الطفولة رسمها فى خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثال من الجمال له روعة كروعة الشعر ، والشعر والرسم أخوان وهما وليدا الخيال ، وقد عرضت فى لندن صورة من رسمه وهى من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها ٥٢٠٠٠ جنيه.

ورأينا من أولع بالنبات يبنى له الأسقف الزجاجية ، ويتخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة ، ويهمه أن يصل منها إلى ورقة نضرة ، أو زهرة بديعة ، أو ثمرة نادرة ، يقدمها فى المعارض الزراعية دليلا على أنه أفرغ الوسع وأجاد. ورأينا من يجمع أوراق النبات المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار ، يضغطها ويتخذ منها مجموعات لدراسة التاريخ. ورأينا من يهتم باقتناء الدواجن والطير المغرد والحيوان الوحشى والخيل والكلاب والقطط ، يراقبها ويدرس طبائعها ، ويجعلها سلوته فى زمن العطلة. ورأينا من يجمع الصور التذكارية التى تمثل الإنسان فى أطواره المختلفة، ويؤلفها تأليفا يصح أن يسعى ديوان الهيئة الإنسانية. ولم تصل الأمم الحية إلى هذه الدرجة إلا بفضل التعليم ، فقد عنى المربون بمراقبة أذواق المتعلمين وميولهم ، وأيقظوا الشعور الغريزى الكامن منذ الصغر حتى نما وصار ملكه يعوّل عليها فى تقدير الحسن ، وتمييز الجمال ، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تدل على بارئها بجميل صنعها. ونحن إذا دخلنا بستانا فأيسر شيء

نراه فيه صنوف الورد والزهر ، وندهش من حسن أوضاعها وذكاء ريحها وبهاء لونها ، ونود لو أنها تبقى على حالها طويلا لتزداد حواسنا بها تمتعا ، وهذا هو السر فى أن صورها فى شكلها الصناعى أغلى منها فى شكلها الطبيعى ، إذ لا يستطيع المصور البارع أن يخرج لنا هذه الصورة طبق الأصل إلا بعد إمعان طويل فى دقائق القدرة الإلهية وعناء كبير فى سبيل المحاكاة.

obeikandl.com